الفصل السادس

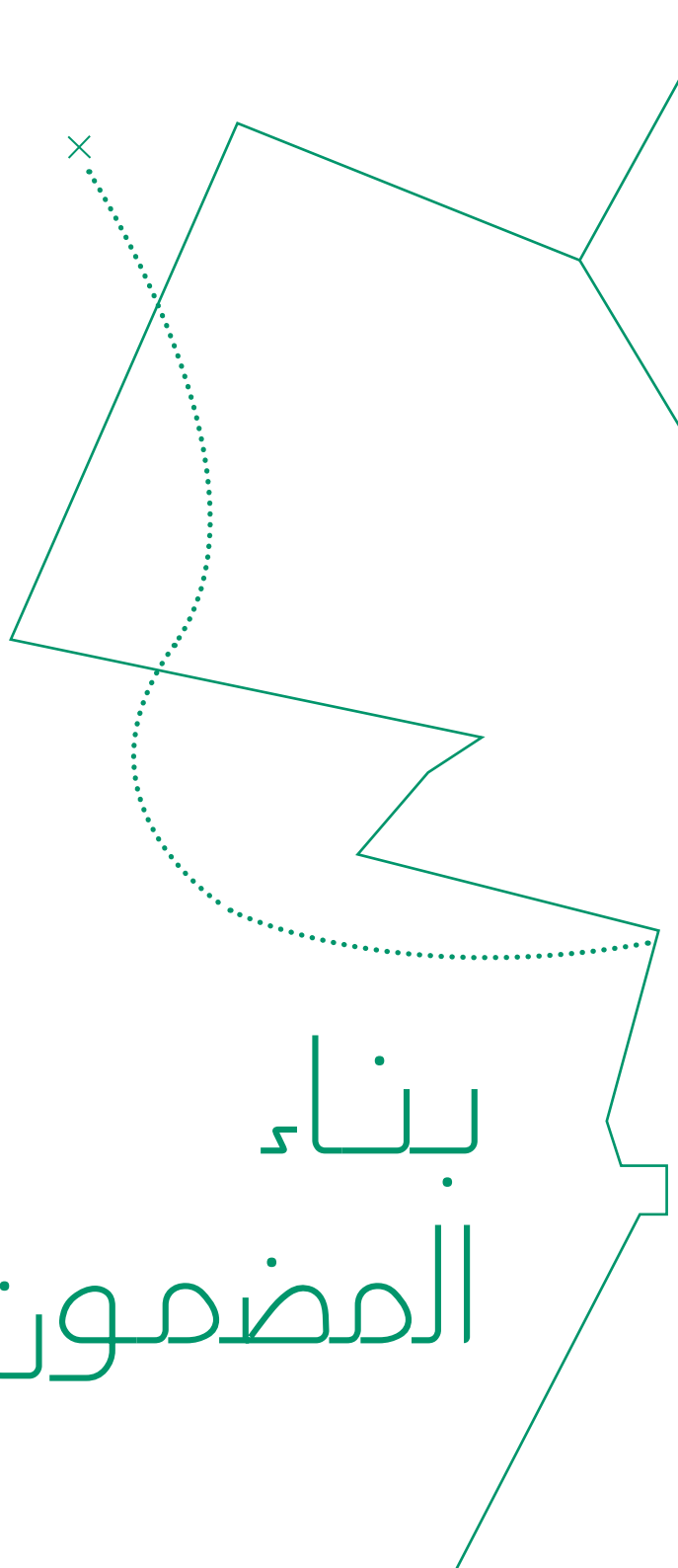

بناء المضمون

بناء المضمون

إن صياغة القصص تتطلّب من الرواة مجهوداً واسعاً. فهذه الصياغة يمكنها تغيير عقلية الناس بالفعل. وبحسب ييلينا دزيكزينيفا، عالمة الأنثروبولوجيا في ليون، «إنّ الصحافيين يخلقون العالم للناس، فهؤلاء يتخيّلون العالم استناداً إلى ما يرَون ويسمعون في الإعلام، ويتقرّبون ممّن يلتقون في الشارع على هذا الأساس». وعليه، يصعب التقليل من شأن مضمون الروايات.

«إنّ الصحافيين يخلقون العالم للناس».

لقد تناول الفيلسوف ميشال فوكو في كتاباته عن السلطة مسألة تأثير الحوار على إنتاج المعرفة وتحديدها، كون الحوار شكلاً مهمّاً من أشكال السلطة يؤثّر في أفعالنا وتصرّفاتنا. وبالتالي، تكون رواياتنا، وكيفية سردها، مظهراً فعليّاً من مظاهر السلطة.

تطرّق العديد من المشاركين عن عملية صياغة القصص: كيف يمكن أن تخلفَ تلك العمليّة الأضرار، وكذلك المنافع. لقد تحدّث لور مكارم من حركة مناهضة العنصرية في لبنان عن أنّ الأسلوب الكتابيّ الجيّد وتحطيم رقم قياسيّ في تغطية المشكلة لا يعنيان بالضرورة أنّ النهج المعتمَد في الصياغة هو جيّد ويقول: «هذا لا يعني أنّهم ينوون نقل السلطة الى الأشخاص الذين يقابلونهم. يجب أن يكون ثمة مشاركة في السلطة وإلّا فقدت الآداب المهنية والتدريب قيمتَها».

«يجب أن يكون ثمة مشاركة في السلطة وإلّا فقدت الآداب المهنية والتدريب قيمتَها».

يتذكّر مكارم أنّ أحد الصحافيين صوّر أحد أفراد حركة مناهضة العنصرية بشكلٍ جيّد. فهو لم يشأ، بحسب مكارم، رسم صورة مؤثّرة للشخص، بل سأل الشخص: «كيف تريد أنتَ أن تصوّر نفسَك». ويتابع مكارم: «إنّ هذه التفاصيل المملّة هي التي تصنع الفرق».

كما عادت ريان بالذاكرة: «لقد اصطحبتنا إلى حيث تسكن، وتكلّمت عن مشاكلها اليوميّة- النقص في الماء وفي سواها. غير أنّ الفيلم المصوّر أظهر قوّة هذه الفتاة. وأعتقد أنّها حين تكبر، ستشاهد الفيلم وتكون فخورة بنفسها».

يتّخذ معدّو التقارير العديد من القرارات في صدد بناء قالب لرواياتهم. هم يختارون الزوايا والتوجّهات، كما التفاصيل التي سيضيئون عليها وتلك التي سيحجبونها، وكيفية وصف الأشخاص والأماكن. لذلك، حتى لو كانوا غائبين عن

مضمون القصة نفسها، إلّا أنّهم يبقون في محور عملية الصياغة.

تعترف فاطمة الحجّي، الصحافية في برلين، بوضعيتها الإمتيازيّة. «أعلم أنّني في وضعيّة تمدّني بالقوة، وأنّه عليّ أن أراقب نفسي في الأوقات كافةً. وذلك لأنّ الإمتياز يمكنه أن يغرّ الصحافيّ فيستعمله للحصول على أفضل قصة ثم يتوقف».

ووافقت سكّر من «كامبجي» على كلام الحجّي: «على الشخص الذي يكتب مقالاً أن يفكّر آلاف المرات بنوعية الرابط او العلاقة التي يخلقها مع قصته».

قد تخدم القصة في تغذية فهمنا لبعض المواضيع أو بالعكس، قد تعزّز الأنماط وتضيّق الأفكار. ويصف الكاتب النيجيري «شيماماندا نجوزي أديشي» في فيديو متداوَل لحديث له في العام 2009 على «TED Talks[9]»، مسألة أنّنا نحظى فقط بقصص يتيمة عن مشاكل وأماكن معيّنة في العالم، ما يحدّ من فهمنا لها. إنّ القصص المنفردة ينقصها الوضوح والشموليّة، وترسل مرّة بعد مرّة صورة واحدة عن مكانٍ معيّن. وحين يحصل الأمر، أي حين تُروى قصة مفرَدة لمرّات عديدة، نعتقد أنّ هذه هي الحقيقة الكاملة والوحيدة.

9 | https://www.ted.com/talks/chimamanda_ngozi_adichie_the_danger_of_a_single_story

تروي دزيكزينيفا، عالمة الانثروبولوجيا، عن فيلماً شاهدته عن مغتربين وصلوا الى إحدى الجزر الإيطالية: «لقد كان فيلماً رائعاً واستمتعت في مشاهدته، لكن لم نتعرّف فيه سوى على الأوروبيين. لقد دخلنا إلى مطبخ أحدهم، وكنّا على متن قارب يعود لآخر، ورأينا أحد أولادهم يلعبون. أما المغتربون فقد تمّ تصويرهم في الفيلم على أنّهم مجموعة من الأفراد، ولم نتعرّف إلى أيّ منهم».

«إذا وُجِدت قصص عديدة، يصبح الأمر كمن لديه مِشكال».

إذا قام الإعلام بتصوير المغتربين أو اللاجئين على أنّهم مجرّد أفراد في مجموعات مجهولة، ولم يعمد إلى تصوير مسيرتهم الشخصيّة، سيقود الأمر في المجتمع الى تهميش وإلى رهاب الأجانب.

يقول سيمون سبيرا، طالب الدكتوراه في إيطاليا: «إنّ الإعلام يلعب دوراً أساسيّاً في تصوير حوار بين «نحن» و«هم» خاصةً في أوروبا. إنّه يرسم لنا فكرة أنّ المغتربين هم أشخاص يأتون في القوارب، على الرغم من أنّ الهجرة في أوروبا غالباً ما تحصل بين دول أوروبية».

وأضاء الكاتب والمحاضر في الآداب المقارَنة في كراتشي، باكستان، نُدرَت كمال، في حلقة صوتيّة مصوّرة[10]، على ضرورة تفكيك هيمنة القصص المنفردة.

10 | soundcloud.com/user-968223567/unlocked-bonus-episode-49

«إذا وُجِدت قصص عديدة، يصبح الأمر كمن لديه مِشكال، يرى الأمور لا من وجهة واحدة، بل من خلال قصص كثيرة تحاور الواحدة فيها الأخرى، أو تناقضها وتعقّدها». فبالنسبة لكمال، المسألة هي مسألة سلطة من الجوانب كافةً:» إذا شئنا، وأنا أشاء، إحلال التوازن السلطويّ في العالم، فنحن بحاجة الى المزيد من القصص. نريد قصصاً أقلّ من ناحية الأشخاص الكائنين في موقع السلطة، وقصصاً أكثر ممّن هم مختلفون وليسوا بالضرورة أصحاب سلطة عالميّة».

إنّ هذا كلّه مشروط بكيفية صياغة القصص. وهو نتيجة خَيارات قد لا يتمّ التنبّه إليها إلّا بعد تحقيق ذاتي وتفكير. ضحى قاضي من منظمة التنمية والإغاثة أكّدت أنّهم بدّلوا أسلوب سرد خبرات الغير في المنظّمة. وتقول: «نحن منظّمة بدأت من الصفر، وتعلّمت القواعد الأخلاقيّة تباعاً. كنّا ننشر صوراً على وسائل التواصل الإجتماعي لأطفالٍ يبكون ولأشخاص يتلقّون مساعدات. لكنّ الناس قالوا لنا: «نحن لا نريد أن نظهر على هذا الشكل، فنحن نمرّ حالياً بمرحلة من الضيق ونحن لسنا كما ظهرنا». والآن أصبح لدينا أسلوب عمل مختلف. لقد أنشأنا قِيَماً نحرص على المحافظة عليها. لقد وضعنا في البدء رؤوسَ أقلام ثم عملنا على تطويرها. وهذا المستند يحتوي الآن على 15 صفحة».

للظهور الإعلاميّ آثاره في الواقع. فقد ذكر العديد من المشتركين أنّ الصورة السلبيّة للمغتربين والنازحين «تخلق عالماً»، على حدّ قول دزيكزينيفا، يعكس هذه السلبيّة.

وتطرّقت قاضي إلى تركيز الإعلام على تصوير العائلات في المخيّمات: «العديد من النازحين لا يقطنون في المخيّمات، فهم من الطلّاب أو الأجراء. ونحن نعتمد عليهم في العمل الزراعيّ والصناعيّ من أجل حاجاتنا الأساسيّة. ونحن الصحافيين نغفل تصوير هذا الأمر، ما يجعل اللاجئين يشعرون بعدم أهمّيتهم ويفقدون ثقتهم في أنفسهم. إذا قيل لك مراراً وتكراراً أنّك عديم المنفعة، سينتهي بك الأمر إلى الإقتناع بذلك».

واشتكى سميح محمود من «كامبجي» من أنّ وسائل الإعلام العادية تستمرّ في نشر صورة سيئة عن اللاجئين في لبنان: «إذا ما ارتكب أحد السوريين مثلاً فعلاً غير مشروع، يقومون ببثّ جنسيّته حتى لو لم يكن لما قام به السوريّ علاقة بجنسيّته».

هذه التفاصيل الشائعة والتلميح الى الجنسيّة أو العرق أو الجنس ترسم الدور الذي تلعبه صياغة القصص في تحديد فهمنا لموضوع الإغتراب.

فعلى مدى السنوات القليلة الأخيرة، وعند إعداد تقارير عن لاجئين ومهاجرين، قامت العديد من المنصّات الإعلاميّة الهامّة باستعمال مصطلحات كـ «موجة من الأشخاص»، أو كـ «طوفان» لأشخاص عبر الحدود: وهي كلمات تُستعمل عادةً للطوارئ الطبيعيّة، وليس للتحرّكات الإنسانيّة.

وقد نُقِلَ عن لسان رئيس الوزراء البريطاني السابق دايفيد كاميرون أنّه قال[11] أنّ «أسراباً من البشر» ستأتي إلى الجزيرة. حتى تلفزيون البي-بي-سي البريطاني قد وصف[12] المغتربين في تقاريره بأنّهم: «طوفان» و«تيارات»، (وقد استعمل للدلالة عليهم صوراً لمجموعات من المغتربين عوضاً عن التعريف على كلّ واحدٍ باسمه). وشدّدت قاضي على أنّ منظّمتها تحرص على الكلمات التي

11 | theguardian.com/uk-news/2015/jul/30/david-cameron-mi-grant-swarm-lan-guage-condemned

12 | bbc.com/news/world-europe-33204681

تستعملها في تقاريرها وخطاباتها: «نحن لا نستعمل مثلاً مصطلح «مستفيد»، بل نستبدله بـ «عضو من الجماعة» أو بـ «مشارك».

في إحدى المرات أعدّت المنظّمة فيلماً مصوّراً عن مطبخ المجموعة الرمضانيّ، لكنّ الترجمة ذكرت أنّ المنظّمة «تُطعِم عشرةَ آلاف نازح». وتتابع قاضي بالقول أنّ الأمر كان خطأً: «نحن لا نستعمل هذه اللغة، فنحن لا نطعِم الناس وكأنّهم يستلمون هذه المساعدات من دون مقابل».

وأيّدت سكّر من «كامبجي» كلام زميلاتها عن مدى أهميّة اختيار الكلمات، فقالت: «حين سافرت الى الخارج ورأيْتُ الأمور من المنظار الخارجيّ، أدركت أنّ التركيز مثلاً على موضوع الحجاب سيخلق رهاباً ضدّ الإسلام». فبالنسبة إليها، إنّ وصف امرأة بأنّها محجّبة لا يعني بالضرورة شيئاً، إنّما تقول: «إذا أردنا نشر رسالة موحّدة بعيدة عن الكراهية، وغير منتجة للأنماط، علينا التأنّي في اختيار عبارات كهذه».

وبالنسبة إلى قاضي، إنّ خياراً غير ذي أهميّة بين كلمتي «حرب» و«أزمة» قد يكون ذا مفاعيل منتِجة. «فالعديد من الصحافيين يقولون: «الأزمة السورية» فيما نحن أمام «حرب سوريّة»، وهذا الأمر يؤدّي الى التقليل من شأن ما يمرّ به هؤلاء الناس. فلو استعملنا عبارة «حرب» لتنبّهنا إلى أنّ هؤلاء الأشخاص ليسوا في أمان في بلادهم».

عند الكتابة عن الإغتراب، تساهم معايير بسيطة في إحداث تبديل في وجهات النظر. فعلى سبيل المثال، يوجد فرق بين وصف الشخص على أنّه «مغترب» وقول «هذا الشخص الذي اغتربَ»، ففي العبارة الأولى، نحن نقلّص هويّة الشخص ونحصرها في كونه مغترِباً، بينما نحافظ في الحالة الثانية على سائر جوانب شخصيّته.

وقد يترك أسلوب الصياغة لقصص الإغتراب أثراً نفسيًّاً. ففي إحدى ورش عملنا، تقدّم صحافيان من التابعية السوريّة وتمّ قبولهما للمشاركة في الورشة. لاحقاً، قالا أنّهما اعتقدا أنّه قد تمّ قبولهما لمجرّد أنّهما مغتربان، وليس بناءً على كفاءتهما المهنيّة كما حصل فعلاً.

إنّ التحييد عن هيمنة القصص المنفردة يتطلّب ليس فقط نوعاً آخراً من القصص، إنّما أيضاً زيادةً في أعدادها. وهذا رأي سبيرا، طالب الدكتوراه الإيطالي، الذي يقول: «من يطبّقون السياسات يستندون على معلومات مُتداوَلة على نطاق واسع، فإذا قدّمنا العديد من القصص، استحالَ عليهم الإستخفاف بهذه المعلومات الواسعة. إنّ واجبنا هو إنتاج عدد كافٍ من القصص ليكون من الصعب عليهم تجاهلها».

إنّ صياغة القصص الجديدة، المتنوّعة والبديلة ليس بالمهمّة السهلة. فالقليل منّا، أو بالأحرى ليس فينا من يقدر أن يحرّر نفسه من التصوّرات المسبقة والأفكار التقليديّة عن عالمنا. ومع ذلك، ثمة مجال للمحاولة. إنّ الكاتبة الألمانية موستلين طرحت وسيلةً غالباً ما نقدّمها في ورش العمل الخاصة بنا: «أن نستبدل في مخيّلتنا بطل القصة بشخصٍ آخر: إذا استبدلناه بأنفسنا، سنلاحظ الأنماط التي نملكها عن الجنس الآخر أو عن سائر هويّات المرء».

وقد عرضت الصحافية اللبنانية نور غصيني أن نقوم بتحدّي الدماغ بصورة متواصلة من أجل أن يتقبّل التنوّع. وتقول: «إنّ أدمغتنا بحاجة الى التدريب تماماً كأيّ شيء آخر في هذه الحياة».

الأسئلة في هذا الفصل:

كيف يمكن للرواة صياغة قصص أكثر تنوعاً وعدالة؟

ما هو تأثير الكلمات التي تُستخدم والطريقة التي نصف فيها الأشخاص؟

كيف يمكن للرواة تجنّب إعادة إنتاج القصص المنفردة؟